مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

العلوم الخفية مصدرًا للبحث في التاريخ الثقافي
محاولة في التأصيل

عمر الحريتي

أستاذ الثانوي التأهيلي وباحث دكتوراه تاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

أ. د. عبد الرزاق ازريكم

أستاذ التعليم العالي شعبة التاريخ والحضارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يوحي مفهوم "العلوم الخفية" أن موضوعه يقتصر على ظاهرة السحر والشعوذة وما إليها من الممارسات والمعتقدات والمعارف المحظورة دينيًا وعلميًا. وقد عرفت العلوم الخفية مصيرا مشابها في الثقافة الإسلامية باعتبارها علوما شابها الغموض مما حمل الفقهاء على نبذها وتحريمها، فيما تنضوي تحته جذور مختلف العلوم الحقة والتجريدية. إن العلوم الخفية مفهوم فضفاض، هُلامي، لكنه يحفظ في ثناياه أنموذجًا ثقافيًا (Paradigme culturel) ينبني صرحه في التاريخ الإسلامي على ثنائية التضاد (الشرعي والغير شرعي) التي تحجب وراءها ما يفيد في ردم الهوات ومحو البياضات المتناثرة في المتون القديمة. ويحضر مفهوم "العلوم الخفية" بقوة في تاريخ المغرب الوسيط وتراثه؛ إذ تشغل حيزًا مهمًا يمتد على مساحة أنساق المقدس الإسلامي. استطاعت العلوم الإنسانية والاجتماعية اختراق الحواجز القائمة بينها وبين حقول الجوار لاستثمار التداخل التخصصي (Interdisciplinarité)، وبينها وبين "الطبيعيات" للاستفادة من التعدد التخصصي (Pluridisciplinarité) بغية تحقيق التعاون المعرفي المأمول. إلا أن تحقيق هذا الأمل ظل مرتهنا بتجاوز التنميط، خاصة تجاه المادة المصدرية الغميسة والوثائق "المُطَلّسَمَة" التي تعتبرها جلّ حقول الإنسانيات من الشواهد غير القابلة للاستثمار العلمي. يعرض هذا المقال محاولة لفتح منفذ بحثي ينضوي في حقل التاريخ الثقافي والذهني يقوم على رصد الخطاب التاريخي الذي تقدّمه "العلوم الخفية".

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٧ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

العلوم الخفية؛ المصادر الغميسة والدفينة؛ البحث التاريخي؛ التاريخ الثقافي والذهني؛ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.247173

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الرزاق ازريكم، عمر الحريتي. **"العلوم الخفية مصدرًا للبحث في التاريخ الثقافي: محاولة في التأصيل".**- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٨٠ – ٩٠.

Corresponding author: elharitiomar.oh@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَّورِية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةُ

تشعبت دروب المعرفة التاريخية، وباتت أقلام المؤرخين تعنى بدراسات تتقصى وراء "الحقيقة التاريخية" بتوسل مختلف المناظير الممكنة بغية مراجعة سيرة الإنسان الشمولية بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولمحاولة بلوغ هذه الغاية العلمية انخرطت عدة علوم وتخصصات في إطار ما بات يعرف بـ "التناهج المعرفي" أو "التجسير المعرفي"، الذي أتاح إمكانية الحوار العلمي والنقاش "الإبيستمولوجي"؛ مما أسهم بشكل ملحوظ في الاستفادة من حصيلات أبحاث الحقول المعرفية المتجاورة. في هذا السياق، أطلق المهتمون بالعلوم الإنسانية والاجتماعية دعوات إلى الانفتاح، وكان المؤرخون على رأس الدعاة إلى السعي وراء تخطي الحواجز بين الإنسانيات والاجتماعيات بمختلف فروعها من جهة، وبين هذه وباقي الحقول العلمية الحقّة من جهة أخرى، بغية توسيع آفاق البحث وتنويع روافد النهل. أخّرت الغاية المنشودة من التناهج عدة عراقيل؛ لعل أبرزها ما هو ذاتي مرتبط بأصحاب التخصصات المشاركة، وأخرى موضوعية تجسدت في استعصاء عملية نسف الحدود بين التخصصات، خاصةً تلك التي لم تكن معرفياتها بارزة القوائم ومستقلة ورصينة، وذلك مخافة الوقوع تحت الهيمنة والتّفتّت.

استطاعت العلوم الإنسانية والاجتماعية اختراق الحواجز القائمة بينها وبين حقول الجوار لاستثمار "التداخل التخصصي (Interdisciplinarité)، وبينها وبين "الطبيعيات" للاستفادة من التعدد التخصصي "Pluridisciplinarité" بغية تحقيق التعاون المعرفي المأمول. تهدف هذه المقالة إلى التمهيد لأطروحة تتغيّا تجاوز الكتابة "النمطية"، مستندة إلى استثمار التراكم المعرفي التاريخي حول الأدب الديني والغرائبي بالمغرب الأقصى. بعيداً عن التنميط تجاه الوثائق "المُطَلْسَمَة" باعتبارها من الشواهد غير القابلة للاستثمار العلمي، وإنما باعتبار جمعها ودراستها يقدمان متنا له خصوصيات تفرض تنويع المقاربات والانفتاح على مختلف أدوات وآليات العلوم الإنسانية وغيرها، سيما على المستوى المنهجي والنظري لتحقيق غاية هي فتح منفذ إلى التأليف التاريخي الحديث.

فما موقع علم التاريخ الإسلامي عمومًا في خريطة التجديد؟ وهل لـ"المدرسة التاريخية" المغربية والإسلامية من خصوصيات على مائدة التاريخ فكرا ومعرفة وكتابة؟

لمحاولة بسط هذه القضايا الاستفهامية ونقاشها نقترح ما يأتي:

- قراءة تعريفية للتاريخ من المنظور الإسلامي (نموذج السخاوي)، وربطه بمسار الكتابة التاريخية المعاصرة، بهدف البحث عن موقع لـ"التاريخ الثقافي والذهني".
- محاولة التأصيل لفتح منفذ بحثي في التاريخ الثقافي والذهني يقوم على رصد الخطاب التاريخي الذي تقدّمه "العلوم الخفية" لقراءة المتن التاريخي على ضوئها من جهة، والاجتهاد في تقديم مقاربة ملائمة من جهة ثانية.

أولاً: آفاق البحث بين المفاهيم والمصادر والمقاربة

١/١- مفهوم التاريخ

مسار علم التاريخ بين نزعة التجديد وواقع التقدم

هل التاريخ ليس سوى إنتاج للإرادة الإلهية أم أنه يسير بفضل القدرات -الجسدية والذهنية والتأملية- التي يملكها الإنسان؟ هل كُتب التاريخ وانتهى الأمر؟ سؤال يفرض استحضار معاني دينامية التاريخ المتحركة باستمرار.

تكاد تُنسب نزعة التجديد في علم التاريخ للمؤرخ الأوربي، خاصة بعد الثورات المنهجية التي عرفتها الكتابات التاريخية في أوروبا. ومن أبرز محطات هذا التجديد تلك التي انتهت إلى توجيه المنظار التاريخي إلى الزوايا المهمشة من الكتابة التاريخية؛ ولعل أبرز مجالات الجدة فيها: مباحث الذهنيات والثقافة بمعناها الشمولي، باعتباره مجالاً واسعًا يحتضن الجدليات الكبرى التي تمتد جذورها إلى البدايات الأولى للإنسان ويستمر حضورها حتى الزمن الراهن، طالما ظل عجز الإنسان عن فهم المجاهيل في حياته قائما "تاريخيا-بنيويا"، رغم مواجهتها بقدرات استثنائية. ارتبطت

مسألة التجديد ونحث مفهوم "تاريخ الذهنيات" (Histoire des mentalités) الذي يوازيه نسبيًا مفهوم "التاريخ الثقافي" في تقليد المؤرخين المعاصرين بالمدرسة التاريخية الفرنسية خلال فترة الستينيات من القرن العشرين، ويشار إلى أن كلاّ من المؤرخين "مارك بلوك" (Marc BLOCH) و"لوسيان فيفر" (Lucien FEBVRE) كانا صاحبا السبق في الانعطاف بالبحث التاريخي المعاصر نحو العالم الذهني والثقافي، باستنادهما إلى مشارب معرفية مجاورة للتاريخ في طليعتها السوسيولوجيا وعلم النفس. وتعد مباحث الذهنيات من المناطق البحثية المعتمة التي لم تطرق بعمق في الدراسات التاريخية المعاصرة، وذلك نتيجة لاعتبارها مباحث تنتمي للمستوى الثالث من التاريخ[١]. فكيف قارب الإخباري المسلم هذه الإشكالية وهو يسرد التاريخ؟

من بين أبرز ملامح التقدم التي طبعت التاريخ الإسلامي ما ارتبط بمفهوم التاريخ نفسه؛ حيث: «اكتمل وأصبح أقرب إلى التعريف الحديث لعلم التاريخ المعتمد على النظرة العلمية في تقصيه وملاحظته للأحداث عند كل من البيهقي وابن خلدون. فالأول تميز بنظرته النقدية إلى الأحداث، والثاني انفرد بتعريف شامل ودقيق يحدد أبعاد علم التاريخ، وآفاق البحث فيه».[٢] من المعلوم أن ثقافة المؤرخ الإسلامي ظلت وثيقة الصلة بالمناخ المعرفي الذي أنتجها. فكان من الطبيعي استجابة المتأدب الناشئ آنئذ لنمط التأديب والتعلم السائد، الذي كان يؤطره من كل الجوانب سمت التراث الديني، خاصة تأثير ظوابط الفقه وقواعد مصطلح الحديث.

وقد انعكس ذلك في مؤلفات خريجي المدرسة الإسلامية ذات المنحى الموسوعي - الذي يرجح أنه يعبر عمّا يترجَم اليوم في القاموس العلمي بـ"التناهجية"-، فلا يخفى على قارئ مؤلفاتهم حضور "التجسير" في مختلف المتون، مهما تنوعت التخصصات التي تنضوي تحتها. فما حدود آثار الموسوعية في مصنفات التاريخ الإسلامي؟ وهل تحتضن مصادره ما يفيد في سد بعض البياضات ويسهم في ردم الثغرات وفق المتطلبات البحثية الحديثة؟

لا يكاد يختلف المهتمون بأدبيات الصنعة التاريخية، أن حجية المؤرخ تقوم على منطق الاحتمال والتخمين أكثر مما تقوم على الضرورة المنطقية.[٣] قد تقوم كذلك على دراسة الحدث كواقع دون الجزم بصورة وقوعه، ولعل هذه الخاصية الملازمة للحذر والأمانة العلمية تُترجَم في عبارة "والله أعلم" التي وظفها الإخباريون القدامى، وتوازي ما يستعيض به المؤرخ المحدّث حين يستحضر التجريد خلال مقاربته التاريخية تعبيرا عن الحذر والتريث وتبرئة للذمة العلمية. ليس الغرض في هذا المقام الوقوف عند جدلية الذاتية والموضوعية في علم التاريخ الإسلامي، وإنما نسعى إلى استعراض أحد نماذج هذا التاريخ "الوسيطي" باقتضاب، وقد وقع اختياره اقتناعا منا أنه توفّق في الجمع بين البعدين المنهجي والمعرفي للتأليف التاريخي الإسلامي بنَفَس شمولي، وهو ما يستقى من التعريف التوليفي الذي قدّمه لعلم التاريخ، بالإضافة إلى حضور سمة التجرّد التي تهيمن على صياغته. وهو – كما لاحظ فرانز روزنتال- كتاب: «للدفاع عن دراسة التأريخ كموضوع ثقافي مساعد في مناهج الدراسة الدينية..كتبه رجل مفعم بالحماس لجمع التفاصيل، والذي يمثل نهاية حقبة عظيمة من البحث في معضلات كتابة التاريخ ».[٤] كما انتبه المحقق المذكور إلى سياق تأليف هذا الكتاب الذي انعكست مؤثراته على المؤلِّف وأثمرت في مقومات المؤَلَّف:« يقف (السخاوي) في نهاية تطور طويل جدا، ويجمع المؤثرات الثقافية واللغوية لعدة حقب مختلفة..ثم إن لغة المؤلَّف فنية جدا، والتعابير الفنية التي يستعملها هي لعلوم خاصة بالإسلام» .[٥]

التاريخ من منظور مؤلَّف" الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ" [٦]

نحث شمس الدين السخاوي تعريفا مركّبا للتاريخ يشمل البعدين اللغوي والاصطلاحي، حيث كتب: « فالتاريخ في اللغة: الإعلام بالوقت...قال الجوهري[٧] التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله..وقيل اشتقاقه من الإرَخ..وهو صغار الأنثى من بقر الوحش. لأنه شيء حدث كما يحدث الولد. وقد فرق الأصمعي[٨] بين اللغتين فقال: بنو تميم يقولون ورَّختُ الكتاب توريخا وقيسٌ تقول أرَّخته تأريخا، وهذا يؤيد كونه عربيا. وقيل

إنه ليس بعربي محض، بل هو معرب مأخوذ من (مَاهْ رُوزْ) بالفارسية (ماه): القمر، و(روز): اليوم. وكان الليل والنهار طرَفَهُ».(٩)

يتضح من هذا التعريف الموجز أن لفظ "التاريخ" أو "التوريخ" حاضر في القواميس العربية،(١٠) رغم الاختلاف حول مصدر اشتقاقه من لسان العرب أو تعريبه عن اللسان الفارسي. وما يدعو للملاحظة بعد تعدد الألسن هو الائتلاف حول علاقة التاريخ الإسلامي بالقمر والنجوم على وجه العموم، وما يؤكد الملاحظة استمرار العرب والمسلمين في اعتماد التقويم القمري. أما تعريفه اصطلاحا فكتب السخاوي أنه:« التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال؛ من مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحجّ، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم. ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملة، وتجديد فرض، وخليفة، ووزير، وغزوة، وملحمة، وحرب، وفتح بلد، وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة ».(١١) افتتح المؤلِّف ما أسماه تعريفا اصطلاحيا باعتبار التأريخ علما مختصا بضبط الأحوال بناء على التقويم؛ وهذه الأحوال لخّصها في: مجمل سير الرواة والأئمة من ولاداتهم إلى وفياتهم؛ وهذا الضرب من التأريخ يوافق ما انتظم من التأليف تحت مسمى "الطبقات" و"التراجم" و"عِلم الرّجال"، ويبدو أن هذا التصنيف يوائم الاهتمام بالأفراد ونخب المجتمع العليا، إضافة إلى الوقائع والأحداث الجليلة التي تدور في فلك المؤسسات الكبرى السياسية والدينية والاقتصادية.

ثم أورد مباحث (الصحة والعقل والبدن) وهي تندرج ضمن علوم الطب وتدبير العقل والبدن، قبل أن ينتقل إلى ذكر الرحلة والحج، وما يتصل بهما ضمنيا من نمط التحصيل العلمي الذي يشمل الحفظ والضبط والتوثيق، إضافة إلى غاية هذا التحصيل وهو "الجرح والتعديل" المتصل بعلم الرجال من الرواة وما إليه من تحرّي ودقة الضوابط النقدية التي تقبل الرواية أو تنكرها بناء على قاعدة دراسة الحامل والمحمول. يُفهم من هذا التعريف أن علم التاريخ يقوم على النظر في الرواية بعد ضبط سند الرواة، وقبل الانتقال إلى تفحص ما ينقل من أخبار نعتها المؤلف بـ"ما يتفق" من الأحداث والوقائع التي يرتبط معظمها بالأبعاد الدينية والسياسية والعسكرية، وقيام الدول وسقوطها. ولم تنته مباحث علم التاريخ حسب السخاوي عند هذا الحد: «وربما يتوسع فيه لبدء الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية... أو دونها... أو نحوها مما يعم الانتفاع به، مما هو شائع مشاهد، أو خفي سماوي،

كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضي، كزلزلة، وحريق، وسيل، وطوفان، وقحط، وطاعون، ومُوتان. وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام ».(١٢) لا شك أن عبارة "بدء الخلق" تصرح بامتداد أبعاد علم التاريخ إلى الحقب القديمة؛ حيث "أساطير" الأمم الماضية وأخبار بداية الخلق وقصص الأنبياء، ولعله ما يصنف اليوم بـ" حقبة ما قبل التاريخ" أو التاريخ القديم. غير أنه يميز بين قسمين من التأريخ توحدهما غاية الانتفاع والعبرة: قسم يضم الشائع المشاهد كالأحداث والوقائع المألوفة، وقسم آخر يشمل الخفي السماوي، كالظواهر المجهولة المرتبطة بالقضاء والقدر وضمنها آفة الجراد باعتباره من "جند الله"، وقسم أرضي كالكوارث الطبيعية والآفات البارزة من جوائح وغيرها.

في ختام تعريفه للتوريخ قدّم السخاوي استنتاجا يستحضر التصور الخلدوني حول جدلية العلمية والفنية في التاريخ: «والحاصل أنه فنّ يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم. وأما موضوعه فالإنسان والزمان. ومسائله: أحوالهما المفَصِّلة للجزئيات، تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان».(١٣) يبطن هذا الرأي ارتهان التاريخ بالتعيين والتوقيت، نافيا علاقته بالتقدير والتنبؤ، فهو فنّ يبحث في جزئيات الإنسان والزمان العارضة بعد حصولها، ولعل هذا الاستنتاج يوضح الإطار المنهجي لصاحبه؛ فهو يتشبث بخضوع العقل الإنساني لثنائية الجبر والاختيار التي أطرت مجمل حدود الفكر الإسلامي خلال العصر الوسيط.

يستخلص مما ساقه شمس الدين السخاوي باعتباره نموذجا للمؤرخ الإسلامي الشمولي؛ أن تعاريف التاريخ التي تستلزم بالضرورة تركيب معطيي اللغة والاصطلاح، تجعل التاريخ معرفة تحتضن الأبعاد الزمنية الثلاثة،

لتغطي حياة البشر بكل جوانبها مركزة على رصد أنشطة الفكر الإنساني وتسجيل مدونة الأفعال البشرية على امتداد الأزمنة والمجالات. ألا نستنبط من عرضه حول تعريف التاريخ ما يتقاطع مع أصداء صيحات المجددين المعاصرين، خاصةً ما أبدعته رؤية المدرسة التاريخية الفرنسية "الحوليات" خلال أجيال[١٤]: تاريخًا جديدًا؟ تاريخًا شموليًا تركيبيًا؛ يؤرخ للنخب والرموز الدينية والسياسية والعسكرية، ويؤرخ للأحداث والوقائع الاجتماعية المتنوعة خاصة تلك التي تشيع بين أفراد المجتمع، كما لا يغفل المؤسسات الجامعة لكل هذه العناصر؟ يبدو أنه تعريف يُبوِّءُ التاريخ مكانة القاسم المشترك بين العلوم باعتباره الأقدر على تحقيق الشمولية العلمية والفكرية. ويؤكد إمكانية استلهام المؤرخ من مختلف العلوم والفنون، وهذا ليس حكرا على حضارة أو ثقافة، إنما هو مشاع معرفي.

٢/١–النسق الثقافي ملتقى العلوم والذهنيات

لا يختلف معظم الباحثين رغم تباين تخصصاتهم وتوجهاتهم حول كون المجتمع عبارة "مجموعة بشرية" يجمعها مجال معين، وتربط بينها علاقات متنوعة تتراوح بين الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، وتشترك –هذه المجموعة– في الهمّ الدّاعي باستمرار إلى تطوير "الوعي المشترك" الذي يميز خصوصية المجتمع وشخصيته. لعل هذا الهمّ الذي يمكن اعتباره أهم المميزات المشتركة واللّصيقة بالمجموعات البشرية هو المحرك القوي لتطور المنظومة المعقدة التي تهيكل المجتمع، والتي يمكن نعتها اختزالا بـ "منظومة الثقافة والحضارة"، دون إغفال أنها تضم المشترك كما تضم الفريد في كل مجموعة، وأنها تضطلع بدور "المؤشر–المعيار" الذي يدعم ترشّح المجموعة لبلوغ الحق في التسمي بـ "مجتمع". والمجتمع حسب السوسيولوجي واقع قائم بذاته ينشأ بالتفاعل بين الأفراد حيث كل الأنشطة البشرية تدخل ضمن الحياة الاجتماعية؛ وبذلك تقلص النزعة السوسيولوجية دور الفرد وأهميته إزاء هيمنة المجتمع في تحديد الوجهات والوقائع باعتبارها مجرد انعكاس للضمير الجمعي. ويبدو من وجهة النظر التوليفية أن هذا التفاعل يتم على مستويات متعددة تنطلق مما هو مادي لتغوص في اللامادي مُخلّفا تناسل أسئلة وقضايا متعددة؛ حول تصنيف الإنسان بين العزلة والاجتماعية، وحول القوى والقوانين التي تتحكم في مسار تاريخه، وحول طبيعة جسور هذا التفاعل بين دفتي المجتمع المتقابلتين باستمرار: (القمة والقاعدة/ النخبة والعامة)، فهل يصح اعتبار المجتمع مجرد واقع موضوعي مستقل عن إدراك الناس كما تصور السوسيولوجي؟

لا شك أن لكل مجتمع أنظمة وأنماطا معينة هي المسؤولة عن إفراز ثقافة وحضارة خاصة، تَنتُج عن تفاعل عام يحصل على مستوى بعدين خاضعين لحتمية الازدواجية المميزة للكيان البشري وهما؛ الجسد بما يعنيه من تجسيد للبعد المادي، والروح التي تجسد البعد اللامادي المطلق. وبمقتضى هذا التفاعل يتشكّل صرح الثقافة المجتمعية وتبرز مظاهرها وخصوصياتها أفقيًا وعموديًا على فترات متباينة المدى، وهذا ما نرمي إليه من خلال توظيف مفهوم "النسق الثقافي" باعتباره وعاء جماعا لمجمل عناصر الحضارة المجتمعية بما فيها من مولدات ذهنية وسلوكيات (مجردة) وما يوازيها من إبداعات إنسانية محسوسة على مرز التاريخ، وبالتالي يجدر اعتماد النسق الثقافي منطلقا موضوعيا يستثير عدة إشكاليات يتمحور معظمها حول جدلية الوجود التي يتلخص كنهها في تقاطع تاريخ الإنسان وتاريخ الطبيعة. فما آليات التفكير في المقاربات والمناهج العلمية الناجعة للتعامل مع شمولية النسق الثقافي، وأي حقل معرفي يستجيب لآفاق موضوع متشعب من هذا القبيل، إن لم يكن التاريخ؟

انبرت آراء مختلف الباحثين في الحقول الإنسانية والاجتماعية للخوض فيما تولّده هذه الإشكالات من قضايا، فتعددت الفرضيات وتنوعت المرجعيات. انطلاقا من اتفاق ضمني بين المهتمين بحقل التاريخ مفاده أن بنية التاريخ العميقة تكمن تحت معطى "النسق الثقافي". وبناء عليه، فالبحث في هذه القضايا يُلزم الباحث؛ تحليل الآليات الذهنية/الرمزية المعقدة بما يستدعي الكشف عن السلوكات المولَّدة من تفاعل المجتمع بين الواقعي والمتخيل في تاريخه الممتد. ولسلوك هذا المنحى البحثي يبدو أنه لا مندوحة من الاستعانة بمختلف الحقول المجاورة للتاريخ "تقليديا" ويتعلق الأمر بتاريخ

الأديان والميثولوجيا، وتاريخ الأدب، وتاريخ الفن...، كما يجب الانفتاح على حقول الجوار المعاصرة خاصة الإثنولوجيا، والأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والسيمياء، والفيلولوجيا، وعلم النفس وغيره.

فيما يتعلق بالمدرسة التاريخية المغربية يلاحظ أن هذا التوجه عموما-التاريخ الثقافي والذهني- لا زال في حاجة للمزيد من الاعتناء بغية تحقيق تراكم معرفي، يسمح بتشريح أعمق للنسق الثقافي؛ قصد تعرّف مظاهر تطور البنيات الذهنية الاجتماعية، ورصد عوامله المختلفة، والكشف عن صلتها بالبنى السياسية والاقتصادية وغيرها. ويبرز دافع الاهتمام به كمطلب ملازم لتوسيع دائرة البحث والتطلع إلى استشفاف ما قد لا تسمح به المقاربة الموثقة المشدودة إلى المادي الملموس وإلى المصادر المعتادة والمألوفة. لطالما أبدى أغلب المؤرخين تشددا كبيرا فيما يخص النبش في البنى الذهنية بمختلف الآليات الممكنة التي تفرض استعارة أقلام كل من السيميائي والإثنولوجي والسوسيولوجي وغيرها، وهو تشدد يُسوِّغه السعي الحثيث إلى احترام حدود الموضوعية وخصوصية الحقل التاريخي. ولتحقيق هذه الغاية نقترح بسط تصور يجمع بين عدة مصدرية غميسة ومقاربة منهجية مركبة لتحليلها دون التخلي عن خصوصية القلم التاريخي.

٣/١-المقاربة: محاولة فك شيفرة "الوثيقة-الطِّلَّسِم"

ليس المقصود من استعمال مصطلح "الطلسم" الإيحاء والإيهام، وإنما يتوافق هذا النعت تماما مع المنعوت؛ ذلك أن الوثائق التي تقدمها الإسطغرافيا "الخيميائية" لا يمكن أن تنعت بمصطلح أكثر دقة وتعبيرا منه، لما تمثله من غموض كبير تتفاوت درجات التعقيد والامتناع فيه شكلا ومضمونا. ونصنف الوثيقة- الطلسم إلى قسمين؛ أولهما واضح الملامح يمكن تعداد أنواعه بشكل عام فيما يأتي:

الحروز والتمائم، وتحتوي على نصوص متنوعة، تكون أحيانا عبارة عن قطع نثرية.

التمائم المركبة، وتحتوي على جزء نثري مصحوب برموز أو جداول أو طلاسم بحروف غير مألوفة.

التمائم التي تحتوي فقط على جداول، أو على طلاسم، أو ترسيمات، أو رسومات.

وثانيهما، قسم تتناثر أجزاؤه بين سطور المصادر المعتادة، تصريحا أو إيحاء يستوجب النبش لرسم عناوينها؛ ونضرب مثلا لذلك إشارة مهمة -سنعود إليها لاحقًا- ساقها ابن خلدون في معرض حديثه عن العلوم الخفية: «وقع لي بهذه الأسماء مرائي عجيبة واطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من أحوالي».[١٥] يبدو أن لفظ الأسماء يشي بأسرار أو وصفات مرتبطة بأحد أضرب العلوم الخفية وهو "الكشف"، ونعتبر هذه الإشارة وثيقة تفتح منفذا لتتبع جزء من ألغاز هذه العلوم وتتيح على حد سواء استقصاء الخصائص العقلية والأفعال العلمية، وتحليلاً يكشف عن المعاني الكامنة خلف هذه النشاطات، بغية تسجيلها وجعلها مرئية ومنطقية وصالحة للأغراض العلمية. وبناء عليه، يظهر أن تتبع وقراءة مضامين العلوم الخفية من خلال جهاز مفاهيمي يستند بالأساس إلى التراث الخلدوني، يفتح آفاقا واعدة في كتابة جزء منسي من تاريخ المغرب الوسيط وغيره.

إن الغاية هي توظيف مقاربة تهدف إلى تقديم صورة للذهنية المجتمعية (نخبا وعامة)، وتعكس نظرة المجتمع للكون على كل المستويات، بما فيها مستوى اللاَّتاريخية أي الجانب المضمر والمغيب وراء الصمت. وهذا يقتضي إيجاد أرضية منهجية تستجيب لمأمول "المؤرخ" من النقاش والحوار المستمر بينه وبين نفسه، وبينه وبين متخصصي الجوار تستوي على نظم خيط منهجي متين يستطيع الصمود إزاء المسبقات النظرية. ومن باب استثمار التجارب والنتائج البحثية نستدعي ترسيمة منهجية توافق عناصرها تطلعات الغاية، وتناسب لمعالجة ما أسميناه الوثيقة — الطلسم، إذا سلمنا بوجود قواسم مشتركة واضحة بين هذا النمط من الوثائق وبين النص الديني المنقبي.

الترسيمة[١٦] المنهجية:

تنطلق الترسيمة من التأكيد على ضرورة انتباه المؤرخ إلى خصوصيات المتن الديني؛ التي أوجزها لطفي بوشنتوف في المستويات الآتية:

مستوى بنية النص الشكلية عبر الاهتمام بمساحتها، وكثافتها، وتماسكها، ومنطق بنائها وهو ترتيب مادتها.

مستوى المضمون الذي يستوجب الحفر عن بقايا الثقافة الشفهية، وأبعاد المتن الكونية والإسلامية

والمحلية، وحمولته اللغوية والاصطلاحية والرمزية كما يتطلب البحث في المسكوت عنه كالمغيب والمضمر وراء الصمت.

مستوى التقاطعات مع نصوص ووثائق، وفهم الإشارات الكبرى التي تعكس النمط العقلي والذهني والأحوال الروحية التي ترصد في الزمن الطويل.

مستوى الخطاب الذي يستلزم البحث في أسباب نزول المتن وكيفيات توظيفه، والمقاييس المعتمدة لانتقائه.

مستوى التأويل وهو غاية المستويات السابقة أعلاه، وفي نفس الآن يشكل الجانب الذي يخشى المؤرخ مزالقه ومثالبه أكثر من غيره، بناء على عدم اطمئنانه للمواد المنقبية مثل خرق العادة والحلم والمتخيل.

لا شك أن هذه المقاربة التناهجية المقترحة بين جوقة علوم متعددة تفتح باب الاصطدام بتنوع المرجعيات، مما سيحتم بدوره تعدد الفرضيات وتنوع الاستنتاجات. تدعو الضرورة أمام خطورة هذا الزخم المنهجي، إلى سلوك توجه في البحث التاريخي قمين بتوفير أرضية أو وعاء بحثي يستوعب تعددية التقاطعات والمزالق. فهل يستجيب التوجه الذهني الثقافي لكتابة التاريخ عبر رصد الذهنيات والسلوكيات المجتمعية وتتبع علاقاتها بالتحولات الاجتماعية والسياسية والدينية؟ إنها مهمة محفوفة بالمخاطر والمزالق والمشاق كما يستشف من تعبير "جاك لوغوف [LEGOFF Jaques]": «الجاذبية الأولى لتاريخ العقليات تكمن بالضبط في عدم دقته، في توجهه للإشارة إلى بقايا التحليل التاريخي».[١٧] ولعل من بين الدعوات الموضوعية المحفّزة لإيلاء العناية بما ظل مهمشّا منفوضا، الدعوى إلى اهتمام: «تاريخ الحضارات بالدرجة نفسها بالحلم وبالجمال وبالخيال الرومانسي، كما يُهتم بعدد السكان وحجم الضرائب».[١٨] شريطة أن تتوفر هذه العناية على: « بعض العناصر الصلبة لدراسة المتخيل الاجتماعي».[١٩]

يبدو أن طبيعة هذه المغامرة البحثية التي تتغيا نظم سلسلة مصدرية مستشفة ومنتقاة من مختلف المتون التاريخية، تفرض تقعيد مقاربة قائمة على تنويع زوايا التحليل كأساس منهجي ومحاولة التأويل باستثمار مداخل اللغة والسيمياء في قراءة مضمرات الذهنية المغربية الممتدة، ولتحقيق هذه الغاية نعول على تجريب منحى تأويلي يقابل "علم التعمية" (Cryptographie)، عماده؛ وضع مجموعات خاصة (Collections) لحصر المعلومات والمعطيات الأساسية، ثم وضع مدوّنات متخصصة (Corpus) لفك الرموز وتحويلها من طلاسم إلى وثائق قابلة للاستثمار والاستقراء.

ثانيًا: "العلوم الخفية" مبحث للتاريخ الثقافي والمعرفي

٢/١- مفهوم العلم في الحضارة اللاتينية والإسلامية

كلمة "علم" في المعاجم من الأصل اللاتيني تُرسم ﴿Science﴾ مشتقة من اللاتينية ﴿Scientia﴾، ومعناها: أسلوب منهجي يقوم ببناء وتنظيم المعرفة في شكل تغيرات حول الكون، ومعرفة حقة وإلمام دقيق بمسألة، أو بمجمل الأنظمة العرفانية المنطقية أو التجريبية لمضمون محدد، أو تراكم المعرفة والدراية المكتسبة حول موضوع معين.[٢٠] ويميز بين العلوم الحقة المضبوطة، وبين أخرى خلافية مثل "العلوم الخفية"، "وعلوم اللدن" التي زعم ﴿Scolastiques﴾[٢١] "السكولاستيكيون" نسبتها إلى النبي آدم عليه السلام. في القرن الثمن عشر الميلادي أطلق على الفلسفة الطبيعية نعت "العلم" في مقابل الفلسفة، لتنتفي العلاقة بين العلمية ومباحث الفلسفة في "ما وراء الطبيعة"، قبل أن يحتم تطور الفيزياء والكيمياء رفض "ما وراء الطبيعة" نهائيًا.

نحت الأنطاكي تعريفًا شموليًا وتفصيليًا أورد فيه مستويات العلم، حيث قسّمه إلى: « علم مقصود لذاته وهو تكميل النفس في قوتها العلمية أي النظرية الاعتقادية والعملية وهو غاية الأول، أو لغيره وهذا هو علم الحكمة، ثم هذه إما أن يكون موضوعها ليس ذا مادة أو كهني وهذا هو الإلهي، أو ذا مادة وهو الطبيعي، أو ما من شأنه أن يكون ذا مادة وإن لم يكن وهو الرياضي...يقال؛ العلم إما استدلال بعلوي على علوي فقط وهو كغالب الطبيعي، أو بعلوي على سافل كالأحكام النجومية، أو بسفلي على مثله كالشعبذة والسيميا والسحر أو استعانة ببعض الأجسام على بعض بشرط

مخصوص نحو زمان ومكان كعلم الطلسمات ».[٢٢]

وجمع أصناف العلوم في أربع مدارات رئيسة هي الأذهان واللسان والأبدان والأديان، وعدّد أصولها كما يأتي:

الأذهان، وأصول علومها خمسة عشر علما؛ المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفلسفة الأولى والفلسفة الثانية والإلهيات والطبيعيات والفلكيات والسماء والعالم والأحكام والمرايا والموسيقى و"الإرِتماطيقَى" (علم خواص الأعداد) والصناعات الخمس (وسائل البرهنة والقياس: البرهان، الجدل، الخطابة، الشعر، المغالطة).

اللسان، وأصول علومه كذلك؛ اللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية والاشتقاق والنحو والصرف والقراءة والصوت والمخارج والحروف وتقسيم الحروف وتوزيع اصطلاحات الأدب.

الأبدان، وأصول علومها؛ الطب والتشريح والصياغات والسباحة وتركيب الآلات والكحل والجراحة والجبر والفراسة والنبض والبحارين والأقاليم، والتأثيرات الهوائية، والملاعب والسياسة.

الأديان، وأصول علومها؛ التفسير للكتاب والسنة والرواية والدراية والفقه والجدل والمناظرة والافتراق واستنباط الحجج وأصول الفقه والعقائد وأحوال النفس بعد المفارقة والسمعيات والسحر للوقاية وضبط السياسات من حيث إقامة الحكم والعلم بالصناعات الجالبة للأقوات.[٢٣]

تعددت تعاريف العلم وتنوعت فروعه، لكن ما عرفه من تطور لم يمحو فضل من وضعوا أحجار الأساس لمختلف العلوم والمعارف من العلماء المسلمين، كابن سينا واضع لبنات علوم الحياة التي أفرزت الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة في حلة حديثة، وجابر ابن حيان رائد علم الكيمياء مع أبي بكر الرازي وغيرهم.

٢/٢-"العلوم الخفية": محاولة التعريف

تنبئ أرصدة الأبحاث الأركيولوجية التحليلية للُّقى الأثرية التي تنسب لحقبة "ما قبل التاريخ/ الكتابة" و"العصور الحجرية"، خاصة النقوش والرسومات وما إليها من "الفنون" عن نشأة الحداثة السلوكية في بقاع العالم أجمع، مجمل هذه الحداثة السلوكية "المشتركة" تعبر عن استمرارية ثقافة مماثلة سائدة؛ ترتكز على فلسفة الخلود، ووجود عالم للأرواح موازي ومعاصر لعالم الحاضر اليومي. وتتلخص في تواصل العالمين من خلال قنوات غامضة تستشف من الطقوسيات والمراسيم...والأحلام.[٢٤] ولا يمكن الجزم حاليًا بنجاح العقل التجريبي والفلسفة الوضعانية في مسح آثار "ما وراء العقلانية".

يوحي مفهوم "العلوم الخفية" إذا تم الاقتصار على ربطه بالمفهوم اللاتيني (Occultisme) أن موضوعه يقتصر على ظاهرة السحر والشعوذة وما إليها من الممارسات والمعارف المحظورة دينيا وعلميا. فيما تنضوي تحته جذور مختلف العلوم من قبيل الرياضيات، والطب، وعلم الفلك، وعلم النجوم، ولعل ما يُتداول في بعض المعاجم اللاتينية (كالفرنسية والإسبانية والإنجليزية) حول تعريف وتاريخ المفهوم يعلل ذلك؛ حيث إنها تجمع على تعريف العلوم الخفية (Sciences Occultes) أو (Occultisme) بأنها مجمل المعتقدات والممارسات التي ظلّت تؤمن بوجود علوم وفنون تتصل بالطبيعة، وتنتمي إلى بُعد ثالث خارج بعدي العلم والدين، فُرض عليها أن تكون خفية وسرية بسبب التحولات الكبرى التي شهدتها المجتمعات الأوربية؛ فالكنيسة الكاثوليكية نجحت في تعطيل ظهورها، قبل أن تُقصيها "الأكاديميات العلمية" التي ولدت في مهد الحداثة. وعرفت مصيرًا مشابها في الثقافة الإسلامية باعتبارها علوما شابها الغموض مما حمل الفقهاء على نبذها وتحريمها.

في الحقبة المعاصرة، وتحديدًا مطلع القرن التاسع عشر انبعث الاهتمام بـ"العلوم الخفية" في أروبا باعتبارها منظومة معقدة تختزن حلقة وصل بين ماضي أوربا الثقافي وحاضرها التقني. فاستجدت دراسات وأبحاث تعنى بمظانّ ومباحث تاريخية تتمحور حول السحر، والعلاجات الطبية، وصناعة الكرامة، ولعله من الجدير إيراد شهادة في حق العلوم الخفية وممارسيها للوسيان فيفر: «كثر النقاش في السنوات الأخيرة حول مغزى هذه "العلوم الخفية" التي ازدهرت على هامش التيار العلمي "الإنساني" [Humanisme]، برعاية أرباب الفلك ومنجمين، وأطباء، وخيميائيين. تبين... أن جهود هؤلاء الرجال في مختلف المجالات ربما أسدت خدمة

للعلم الحديث بالإسهام في ولادته ونشأته، أكثر مما قدمت له المعارف الكلاسيكية التي أنتجها دكاترة الجامعات».(٢٥)

يمكن ربط مفهوم "العلوم الخفية" على المستوى المعجمي بمجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي استعملت كمرادفات له؛ مثل: علم الروحانيات، العلوم اللّدنية، وعلوم الباطن، علم الحروف، علم الحدثان، وعلم الجفر، وعلوم الكشف، علم الزايرجة وغيرها. على أن مسمى "العلم الخفي" ليس دارج الاستعمال في القواميس العربية كما هو الشأن في المعاجم اللاتينية التي اعتمدت المفهوم ﴿occultisme﴾ بالموازاة مع تنامي الاهتمامات البحثية بالظواهر المرتبطة به. فنجد معناه يتقاطع في الألسن؛ الفرنسي والاسباني والإنجليزي. فهل "العلوم الخفية" تستحق أن تسمى علوما أم هي من العلوم الزائفة؟ وما موقعها في تاريخ وحضارة المغرب الوسيط؟ وما علاقتها بالتراث الخلدوني؟

وقف ابن خلدون في مقدمته مطولا عند العديد من القضايا المتعلقة بشتى ضروب "العلوم الخفية"، بالدراسة وأحيانا تجاوز ذلك إلى اختبار أحد وصفات "الرؤيا" الواردة في كتاب "غاية الحكيم في أحكام التنجيم" لمسلمة المجريطي: «وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضيات، ذكر أسماء تُذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يُتشوف إليه ويسمونها الحالوميّة، وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومةً سماها حالومةَ الطِّبَّاعُ التَّام».(٢٦) وقد جربها ابن خلدون وعاين النتيجة: «وقع لي بهذه الأسماء مرائي عجيبة واطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من حالي»(٢٧)، ويقصد بـ "الأسماء" في عموم اللفظ كل الكلمات أو العزائم سواء كانت عربية أم أعجمية، المستخدمة في عملية "الكشف المنامي"، أو ما يصطلح عليه بـ "الخبير الليلي"؛ ويرجح أن ممارسة هذا الطقس لا تتم فقط ليلا أثناء النوم، ولا تعتمد فقط على المرائي، وإنما توجد طقوس متعددة يتم بعضها نهاراً. رأى صاحب المقدمة أن مسلك الكشف هذا، هو المتغلب في العمران البدوي، كما أشار إلى أن له صلة قوية بأطوار الدولة وأمور السياسة، ولعل هذا من أبرز المؤشرات الدالة على الحضور القوي للعلوم الخفية في ذهنية زعماء الدول الوسيطية ببلاد المغرب.

يحضر مضمون "العلوم الخفية" بقوة في تاريخ المغرب الوسيط وتراثه؛ ذلك أنها تشغل حيزًا مهما يمتد على مساحة أنساق المقدس الإسلامي انطلاقا من النسق الديني الشرعي وهو الضابط للعلاقة بين الحلال والحرام، وصولا إلى النسق الصوفي الراعي للعلاقة المباشرة مع الإلهي ثم النسق الطرقي حيث تتمثل الوساطة بين البشري والإلهي. قال ابن خلدون في هذا الصدد: «إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصًا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها. إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطِسَاس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحدا جحدها ولا إنكارها».(٢٨)

ومما أثار اهتمام صاحب المقدمة بالمغرب وجود أهل الأسرار الخفية الممارسين لعلوم الحروف: «وقد شهدت جماعة بأرض المغرب، ممن اتصل بذلك، فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله».(٢٩) إن من أهم المسوغات التي يجب اعتبارها لشيوع الإيمان بالعلوم الخفية بالمغرب خاصة في العصر الوسيط، هي الصلة المباشرة بالطبيعي التي هذبت إمكانية حضور الخرق والتفاعل مع عالم مليء بالأرواح والقوى والجن والخوارق، لكن ما دلالة العبارة الأخيرة: بتأييد الله؟

استخلص عبد الله العروي من معالجة بن خلدون لمباحث "العلوم الخفية" أن: «التنجيم وكل ما يتعلق به هو إرث حضارة سابقة راسب في عمران بدوي، فيبقى حاضرًا عندما يزدهر العمران... ويكتسي عندما تشرف الدولة على الانهيار كل مظاهر "العلم" الدقيق المجرب ليخبر عما يكون في كل النهايات: نهاية الملك ونهاية الدولة ونهاية المجتمع والإنسان والكون».(٣٠) فهل ما دفع صاحب المقدمة للانخراط في صراع مرير ضد

ظاهرة الخرق وتياره الجارف لمحاصرة منطق "الكشف" كان مجرد هم سياسي كما تصور عبد الله العروي؟[٣١]

خَاتِمَةٌ

ابتغت هذه المحاولة التمهيد لفتح منفذ بحثي يتتبع مضمرات الذهنية المغربية لإثراء النقاش الدائر حول علاقة الدين والعلم والعقل، وعلاقة وعي المغاربة بالوسط التاريخي عموما. ولمحاولة القبض على التِّيمات الصامتة في أحشاء التاريخ "الوضعاني"، البعيدة عن التاريخ الرسمي والقريبة من الإثنولوجيا "الكولونيالية"[٣٢]، إيمانًا بأن قلة الاكتراث بما هو عادي وصامت يُفوِّتُ الكشف عن أصالته المتوارية. إن المغرب بلد الروحانيات والخوارق والسحر منذ القديم، ولا تزال هذه التمثلات حاضرة عند المغاربة أنفسهم كما عند الآخر. وتظل آثار العلوم الخفية حاضرة في الذهنية المغربية وشاهدة على احتكاك المغاربة الطويل بالطبيعة وأسرارها قبل احتكاكهم بالتقانة العصرية التي أنتجتها "الحداثة" لتزاحم الأفكار قبل الأوطان في أذهانهم وتصوراتهم وفي حياتهم اليومية. تأكّد علميا أن المغرب القديم كان مأهولاً منذ ما يزيد على ثلاثمائة ألف سنة.[٣٣] مما يجعل البحث في تاريخه وتراثه أمرًا مثمرًا، خاصة بعد أن أسقطت القراءات الإثنوغرافية الأفكار المسبقة حول الحضارات "المنعوتة بالبدائية" وخلخلت بذلك مركزية الحضارة الأوربية ذات الجذور الإغريقية الرومانية والمسيحية.

إن العلوم الخفية مفهوم فضفاض، هُلامي، لكنه يحفظ في ثناياه أنموذجًا ثقافيًا (Paradigme culturel) يسمه الغموض المحرّم أحيانًا والمحترم أحيانًا أخرى. ينبني صرحه في التاريخ الإسلامي على ثنائية التضاد (الشرعي وغير الشرعي) التي تحجب وراءها ما يفيد في ردم الهوات ومحو البياضات المتناثرة في المتون القديمة. فهل العلوم الخفية بالمغرب تاريخ تعرض للحظر والطمس، أم أنها واقع ثقافي صامد باستمرار؟

الإحالات المرجعية:

(١) ميشيل فوفيل، **التاريخ والأمد الطويل**، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ١٤٥.

(٢) ناصر سعيدوني، **أساسيات منهجية التاريخ**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٨.

(٣) محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية، التاريخ والعلوم الاجتماعية** (ترجمة)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٥، ص٢١٥.

(٤) محمد بن عبد الرحمان بن محمد شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، تحقيق فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص٥. فرانز روزنثال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ٣٧١-٣٧٢.

(٥) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص٩.

(٦) صاحب المؤلف هو شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمان، اشتهر بالسخاوي نسبة لـ "سَخَا" شمال **مصر**، ولد حوالي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧-١٤٢٨م بالقاهرة، مؤرخ وعالم حديث وتفسير وأدب اشتهر عصر المماليك، توفي **بالمدينة المنورة** حوالي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. اقترحُ مؤلفه لسببين؛ أولا، لاعتبار تجربته لاحقة للتجربة الخلدونية التي ننوي استثمارها من زاوية مختلفة، وثانيا لتماهي عنوانه مع عنوانين سطّرهما عَلَمان من أعلام المدرسة التاريخية الأوربية وهما: "**مارك بلوك**[Marc BLOCH] ومؤلفه حمل عنوان: "**مهنة المؤرخ أو دفاعا عن مهنة التاريخ** " Apologie Pour l'Histoire Ou Métier d'Historien.

و"لوسيان فيفر [Lucien Febvre] وعنوان مؤلفه: " **معارك من أجل التاريخ**" Combats pour l'Histoire ".

(٧) إسماعيل بن حماد الجوهري، توفي في نهاية القرن الرابع الهجري الموافق لأوائل القرن الحادي عشر الميلادي، عالم من أئمة اللغة العربية، صاحب كتاب "**الصِّحَاح**".

(٨) عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي البصري ولد بالبصرة حوالي سنة ١٢٣هـ/٧٤١م (زمن الأمويين)، وتوفي بالبصرة حوالي سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م (زمن العباسيين)، اشتهر بكونه عالما لغويا فذا، وتوارت خلف شهرته النحوية مؤلفات عديدة في علوم وفنون مختلفة كالعلوم الطبيعية وعلم الحيوان. ابن النديم، الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (غياب الطبعة) ٢٠٠٩، صص ٨٢-٨٣.

(٩) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٦ – ١٧.

(١٠) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة أرخ، باب الهمزة، المجلد الأول، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٨. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، فصل الهمزة، باب الخاء، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥، ص٢٤٨.

(١١) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٨.

(١٢) نفسه، ص ١٨-١٩.

(١٣) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٩.

(١٤) تتمظهر هذه الرؤية فيما بلوره جيل المؤرخ الفرنسي "جاك لوغوف J. LE GOFF " وهو كون «**جدّة التاريخ ترصد من خلال ثلاث سيرورات: إشكالات جديدة تعيد النظر في التاريخ نفسه، مقاربات جديدة تطوّر وتغني مجالات التاريخ التقليدية، مواضيع جديدة تثري الحقل الإبستيمولوجي للتاريخ**» .
J. LE GOFF, P. NORA, Faire de l'histoire, Nouveaux problèmes, nrf, éditions Gallimard, 1974, P X.
نقلاً عن: لطفي بوشنتوف، «**الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث**»، مجلة البحث التاريخي، عدد ٧/٨ ، دار المنظومة، ٢٠١٠، ص ٩٣-١٠٠.

(١٥) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٣٢.

(١٦) لطفي بوشنتوف، «**الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث**» ، مجلة البحث التاريخي، عدد ٦-٧، دار المنظومة، ٢٠١٠، صص ٩٣-١٠٠. تجدر الإشارة إلى أن عنوان المقالة "**العلوم الخفية موضوعا للبحث في التاريخ الثقافي**" وخطوطها العريضة نبعا قبل الاطلاع على مقالة الأستاذ **لطفي بوشنتوف**، ولمّا تقاطع الانشغال المنهجي تمت الاستفادة من حصيلة هذه الأخيرة من باب استثمار التراكم المعرفي لإنشاء **ترسيمة منهجية**.

(١٧) جاك روفيل، «**تاريخ العقليات**»، ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل، عدد ٧، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص ٦٣-٧٠.

(١٨) التعبير لـ "**جوهان هويزنغا**" في كتابه "**انحطاط العصر الوسيط**"، نقلا عن فيليب أرياس، «**تاريخ الذهنيات**»، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٨١.

(١٩) وهي صيغة ردّد صداها "**جاك لوغوف**" في مقولة له ضمن كتابه "**من أجل عصر وسيط آخر**"، نقلا عن فيليب أرياس، «**تاريخ الذهنيات**»، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٨١.

(20) DICTIONNAIRE LE ROBERT.COM

(٢١) نسبة إلى "السكولاستيك" وهي معرفة تمتاح من التراث الأرسطي المؤول من لدن الثيولوجيين الأوروبيين، وتجمع بين الفلسفة والثيولوجيا المدرّسة في جامعات أوربا الوسيطية، تقابل علم الكلام في التراث المعرفي الإسلامي DICTIONNAIRE LE ROBERT.COM .

(٢٢) داود الضرير الأنطاكي، **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، الجزء الأول، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، الطبعة الثانية (حجرية)، ١٣١٧هـ، ص ٦-٨.

(٢٣) نفسه، نفس الصفحتين.

(٢٤) علّق فرويد عن الأحلام قائلا: «**كان للأحلام في العصور القديمة أهمية كبيرة في التنبؤ بالمستقبل؛ ولكن العلم الحديث أعرض عنها، إذ أسلمها للخرافة معلنا أنها مجرد عمليات "جسمية" أو نوع من التشنج يطرأ على ذهن هو في حالة النوم**» . سيغموند فرويد، **حياتي والتحليل النفسي**، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤، ص٦٦-٦٧.

(٢٥) نورد النص الأصلي المقتطف من كتاب لوسيان فيفر، "**مشكلة الإلحاد في القرن السادس عشر: ديانة رابليه**":

« On a beaucoup discuté, ces années dernières, sur le rôle, la valeur, la dignité de cette (science occulte) qui s'est développée, en marge de la science humaniste, par les soins d'astrologues, de médecins, de chercheurs de pierre philosophale. On a montré (et de côtés très opposés) comment l'effort confus de ces hommes, leurs idées troubles, leurs spéculations aventureuses et mêlées de rêveries, avaient peut-être, dans certains domaines, rendu plus de services à la science moderne,= =contribué davantage à sa naissance et à sa constitution, que le savoir classique des docteurs fabriqués par les Universités ». *Lucien FEBVRE, **Le problème de l'incroyance au XVI(e)siècle : la religion de Rabelais**, Edition albain Michel , paris, 1947- Édition numérique, 2006, Québec, p 451.*

(٢٦) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٣١.

(٢٧) نفسه، ص ١٣٢.

(٢٨) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٣٢.

(٢٩) نفسه، **ص** ٦٩.

(٣٠) عبد الله العروي، **مفهوم العقل مقالة في المفارقات**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧، صص ٢٠١-٢١١.

(٣١) نفسه، ص ٢١٨-219.

(٣٢) نخص بالتحديد أعمال "إدمون دوطي" [Edmond DOUTTE] وخاصة مؤلفه "**السحر والدين في شمال إفريقيا**"، الذي وصفه "جاك بيرك" [Jacques BERQUE] قائلاً: « **كتاب عظيم...من أهم ما كتب في هذا المجال في المغرب الكبير** »، مضيفا في حق صاحبه: «**إنه ملاحظ نافذ، ورحالة نبيه، وباحث متفطن لتصحيح المعرفة عبر الخيال، وجدت فيه الإنثولوجيا الإنجليزية والسوسيولوجيا الفرنسية نعم المطبّق**».إدمون دوطي، **السحر والدين في شمال إفريقيا**، ترجمة فريد الزاهي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩، ص٦.

(٣٣) إعلان المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث التابع لوزارة الثقافة والاتصال، سنة ٢٠١٧ باكتشاف بقايا عظام إنسان ينتمي لفصيلة "**الانسان العاقل البدائي**" بموقع جبل "**إيغود**" إقليم اليوسفية؛ والتي تم تحديد تاريخها بحوالي ثلاثمائة ألف سنة.